جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

السنة الأولى ماستر(لسانيات عامة). السنة الجامعية: 2023/2022.
التخصص: لسانيات عامة. السداسي الأول.
مادة: أعلام البحث في التراث العربي. أستاذ المادة: أ.د. محمد بن يحي.

المحاضرة الأولى: طلائع الدرس اللغوي العربي: أبو الأسود الدُّؤَلي (ت: 69 ه) وتلاميذه.

لم يكن العرب في حاجة إلى النحو قبل انتشار الإسلام واختلاطهم بغيرهم من الشعوب؛ لأنهم كانوا ينطقون العربية على السليقة. وبانتشار الإسلام واختلاطهم بالأعاجم بدأ اللحن يشيع على الألسنة؛ فقامت الحاجة إلى وضع النحو؛ لصون اللسان العربي.

1- أسباب وضع النحو: تضافرت بواعث مختلفة أدّت إلى وضع النحو، منها الديني ومنها غير الديني.

1- 1- البواعث الدينية: ترجع إلى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداءً فصيحا سليما إلى أبعد حدود السلامة والفصاحة، وخاصة بعد أن أخذ اللّحْن يشيع في الألسنة، وكان قد أخذ في الظهور منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى بعض الرواة أنه -صلى الله عليه وسلم- سمع رجلا يلحن في كلامه فقال: «أرشدوا أخاكم، فقد ضلّ»[1]. ورووا أن أحد ولاة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كتب إليه كتابا به بعض اللحن، فكتب إليه عمر: «أَنْ قَنِّعْ كاتبَك سَوْطا»[2]. إلى غير ذلك من الروايات التي تفيد ببداية ظهور اللحن منذ فجر الإسلام.

غير أن اللحن في صدر الإسلام كان لا يزال قليلا بل نادرا، وكلما تقدمنا منحدرين مع الزمن اتسع شيوعه على الألسنة، وخاصة بعد تعرُّب الشعوب الأعجمية التي كانت ألسنتها تحتفظ بكثير من عاداتها اللغوية؛ فشاع اللحن في الألسنة، حتى إنّ ألسنة العرب في الأمصار الإسلامية أخذت سلائقهم تضعف؛ لبعدهم عن ينابيع اللغة الفصيحة. ووصل اللحن حتى إلى بلغائهم وخطبائهم المفوهين. فقد روي أن الحجاج بن يوسف الثقفي (ت: 95 ه) سأل يحيى بن يعمر (ت: 129 ه): هل يلحن في بعض نطقه؟ فصارحه يحيى بأنه يلحن في حرف من القرآن الكريم؛ إذ كان يقرأ قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾[التوبة/9]،كان يقرأ ((أَحَبَّ)) بالضم ((أَحَبُّ))، والوجه أن تقرأ بالنصب خبرا لكان، لا بالرفع[3].

---

[1] أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط2، 2009، ص19.

[2] ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، (د ط)، (د ت)، 2/ 8.

[3] الزُّبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د ت)، ص28.

وازداد اللحن فشوّا وانتشارا على ألسنة الذين لم ينشؤوا في البادية مثل آبائهم، إنما نشأوا في الحاضرة واختلطوا بالأعاجم اختلاطا أدخل الوهن على ألسنتهم وفصاحتهم، على نحو ما هو معروف عن الوليد بن عبد الملك بن مروان (ت: 96 هـ) وكثرة لحنه[1].

وكان كثيرون من أبناء العرب وُلدوا لأمهات أجنبيات أو أعجميات، فكانوا يتأثرون بهن في نطقهن لبعض الحروف وفي تعبيرهن ببعض الأساليب الأعجمية[2]. وكل ذلك جعل الحاجة تمس إلى وضع رسوم يعرف بها الصواب من الخطأ في الكلام؛ خشية دخول اللحن وشيوعه في تلاوة القرآن الكريم.

1- 2- <u>البواعث القومية</u>: وترجع إلى أن العرب يعتزون بلغتهم اعتزازا شديدا؛ مما جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزجوا بالأعاجم؛ مما جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها؛ خوفا عليها من الفناء والذوبان في اللغات الأعجمية.

1- 3- <u>البواعث الاجتماعية</u>: وتتمثل في أن الشعوب المستعرَبة أحست بالحاجة الشديدة لمن يرسم لها أوضاع العربية في إعرابها، وتصريفها، حتى تتمثّلها تمثلا مستقيما، وتتقن النطق بأساليبها نطقا سليما.

ومعنى ذلك كلّه أن بواعث متشابكة دفعت دفعا إلى التفكير في وضع النحو، ولا بد أن نضيف إلى ذلك رقيّ العقل العربي، ونمو طاقته الذهنية نموّا أعدّه للنهوض برصد الظواهر اللغوية، وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلا تطّرد فيه القواعد، وتنتظم الأقيسة انتظاما يهيئ لنشوء علم النحو، ووضع قوانينه الجامعة المشتقَّة من الاستقصاء الدقيق للعبارات والتراكيب الفصيحة، ومن المعرفة التامة بخواصها وأوضاعها الإعرابية[3].

2- <u>أبو الأسود الدُّؤَلي (ت: 69 هـ)</u>[4]: هو ظالم بن عمرو بن سفيان، و"الدُّؤَليّ" نسبة إلى "الدُّئِل"، وهي قبيلة من كنانة.

وقد اختُلف في أوّل من وضع النحو. يقول السيرافي: «اختلف الناس في أول من رسم النحو، فقال قائلون: أبو الأسود الدؤلي، وقال آخرون: نصر بن عاصم الدؤلي (ت: 89 هـ)، ويقال اللّيثي، وقال آخرون عبد الرحمن بن هرمز، وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي»[5].

غير أن الروايات اضطربت في وضع أبي الأسود للنحو، فمنها ما يجعل ذلك من عمله وحده، ومنها ما يصعد به إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (ت: 40 هـ)؛ إذ يَرْوُون عن أبي الأسود نفسه أنه دخل عليه، وهو بالعراق، فرآه مطرقا مفكرا، فسأله فيم يفكر؟ فقال له: سمعت ببلدكم لحنا، فأردت أن أصنع كتابا في أصول العربية، وأتاه بعد أيام فألقى إليه صحيفة فيها: «الكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما

---

[1] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، 2/ 204.

[2] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 72 وما بعدها.

[3] شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1983، ص13.

[4] ينظر ترجمته في: أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص20 وما بعدها. والسيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة الحلبي، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص10 وما بعدها. والزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص21 وما بعدها. وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، (د ط)، 1998، ص16 وما بعدها. والقفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986، 48/1 وما بعدها.

[5] السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص10.

أنبئ به، والحرف ما جاء لمعنى»[1]، ثم قال له: «واعلم أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر»[2]. وتذكر هذه الرواية أن أبا الأسود جمع لعليٍّ -رضي الله عنه- أشياء وعرضها عليه، وكان منها حروف النصب: إنّ، وأنّ، وليت، ولعل، وكأنّ، ولم يذكر أبو الأسود: لكنّ، فقال له علي: لِمَ تركتها؟ فقال: لم أحسبها منها، فقال: بل هي منها، فزدها فيها[3].

كما أن الروايات تضطرب أيضا في سبب وضعه النّحو، وفي حاكم البصرة الذي حثّه على ذلك، وفي أبواب النّحو الأولى التي وضعها. فمن قائل: إنه سمع قارئا يقرأ الآية الكريمة: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[التوبة/3] بكسر اللام في كلمة "رسوله"، فقال: ما ظننت أمر الناس يصل إلى هذا. واستأذن زياد بن أبيه والي البصرة (45-53هـ)، وقيل: بل استأذن ابنه عبيد الله واليها من بعده (55-64هـ) في أن يضع للناس رسم العربية. وقيل: بل وفد على زياد، فقال له: إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاما يعرفون -أو يقيمون- به كلامهم؟ وقيل: بل إن رجلا لحن أمام زياد، أو أمام ابنه عبيد الله، فطلب زياد أو ابنه منه أن يرسم للناس العربية[4].

وقيل: إنه رسمها حين سمع ابنته تقول: ما أحسنُ السماء، وهي لا تريد الاستفهام وإنما تريد التعجب، فقال لها قولي: "ما أحسنَ السماءَ!". وفي رواية أنه شكا فساد لسانها لابن أبي طالب، فوضع له بعض أبواب النحو، وقال له: انحُ هذا النحو، ومن أجل ذلك سُمِّيَ العلم باسم النحو. ويقول بعض الرواة: إنه وضع أبواب التعجب، والفاعل، والمفعول به، وغير ذلك من الأبواب[5].

وقد يُشرك بعض الرواة معه في هذا العمل تلميذيه نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز؛ يقول الزُّبيدي: «فكان أول من أصّل ذلك وأعمل فكره فيه، أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، ونصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، فوضعوا للنحو أبوابا، وأصّلوا له أصولا؛ فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف»[6].

ويرى الدكتور شوقي ضيف أنّ كل ذلك من عبث الرواة الوضّاعين المتزيّدين، وذلك أن أبا الأسود نُسِبَ إليه أنه وضع العربية، فظن بعض الرواة أنه وضع النحو، وهو إنما وضع أول نقط يحرر حركات أواخر الكلمات في القرآن الكريم بأمر من زياد بن أبيه أو ابنه عبيد الله، «وكان هذا الصنيع الخطير الذي سُمّي برسم العربية سببا في أن يختلط الأمر فيما بعد على الرواة، فتظن طائفة منهم أن أبا الأسود رسم النحو وشيئا من أبوابه، وهو إنما رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه»[7].

---

[1] ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص14. والقفطي، إنباه الرواة، 39/1.

[2] القفطي، إنباه الرواة، 39/1.

[3] ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص15. والقفطي، إنباه الرواة، ص39.

[4] السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص12. والقفطي، إنباه الرواة، 40/1 وص50.

[5] السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص14. وينظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص21. والقفطي، إنباه الرواة، 51/1

[6] الزُّبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص11.

[7] شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص16.

وقد اتخذ أبو الأسود لذلك كاتبا فطنا حذقا، وقال له: «إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف، فانقط نقطة على أعلاه، وإذا ضممت فمي، فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت فمي، فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئا من ذلك غُنّة، فاجعل النقطة نقطتين»[1].

وحمل هذا الصنيع عن أبي الأسود تلاميذه من القرّاء، وفي مقدمتهم نصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، ويحيى ين يعمر، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن. قال أبو عمرو بن العلاء: «وكل هؤلاء نقطوا وأُخِذ عنهم النقط، وحُفظ وضُبط وقُيِّد وعُمل به، واتُّبع فيه سنتهم واقتُديَ فيه بمذاهبهم»[2].

3- <u>نصر بن عاصم اللّيثي (ت: 89 هـ)</u>[3]: وهو أحد تلاميذ أبي الأسود الدّؤلي. ويُروى أنّه أول من نقط المصاحف وعشَّرها وخمّسها، أي: كان أول من قسم آيات المصحف أقساما[4]. «وكان نصر بن عاصم أحد القرّاء والفصحاء، وأخذ عنه أبو عمرو بن العلاء والناس . وروي عن عمرو بن دينار، قال :اجتمعت أنا والزهريّ ونصر ابن عاصم، فتكلم نصر، فقال الزهريّ: إِنَّهُ لَيُفَلِّقُ بالعربية تَفْليقاً»[5].

وتذهب بعض الرّوايات إلى أنه أول من وضع العربية. قال السيرافي: «وأما نصر بن عاصم، فقد روى محبوب البكري عن خالد الحذاء قال : سألت نصر بن عاصم، **وهو أول من وضع العربية**: كيف نقرؤها؟ قال: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللهُ الصَّمَدُ، "لم ينون". قال: فأخبرته أنّ عُرْوَةَ يُنَوِّنُ، فقال : بِئْسما قال، وهو لِلْبِئْسِ أهْل، فأخبرت عبد الله بن أبي إسحاق بقول نصر بن عاصم، فما زال يقرأ بها حتى مات»[6].

ولعلّ نقط نصر بن عاصم المصحف الشريف جعل بعض الناس يعتقد أنه أول من وضع النحو، والأصح أنه رسم نقاط الإعجام، لا قواعد النحو[7]. قال ابن الأنباري: «فأما زَعْمُ مَنْ زَعَمَ أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ونصر بن عاصم فليس بصحيح؛ لأن عبد الرحمن بن هرمز، أخذ النحو عن أبي الأسود، وكذلك أيضاً نصر بن عاصم أخذه عن أبي الأسود، ويقال عن ميمون الأقرن»[8].

4- <u>عبد الرحمن بن هُرْمُز (ت: 117 هـ)</u>[9]: أحد تلاميذ أبي الأسود الدّؤلي. وهو مدنيّ تابعيّ، أخذ القراءة عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة -رضي الله عنهما- وأخذ عنه نافع بن أبى نعيم[10].

---

[1] أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص23. والسيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص12. والقفطي، إنباه الرواة، 40/1.

[2] أبو عمرو الداني، المحكم في نقط المصاحف، تح: عزة حسن، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 1997، ص6.

[3] ينظر ترجمته في: السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص15-16. والزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص27. وابن الأنباري، نزهة الألباء، ص23. والقفطي، إنباه الرواة، 343.

[4] الداني، المحكم في نقط المصاحف، ص6.

[5] السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص16. وابن الأنباري، نزهة الألباء، ص23.

[6] السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص15. والقفطي، إنباه الرواة، 344/3.

[7] شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص17

[8] ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص19.

[9] ينظر ترجمته في: السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص16. والزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص26. وابن الأنباري، نزهة الألباء، ص24. والقفطي، إنباه الرواة، 172/2.

[10] القفطي، إنباه الرواة، 173/2.

وقد نسبت إليه بعض الروايات وضع العربية. قال السيرافي: «وأما عبد الرحمن بن هرمز فروى ابن لَهيعة عن أبي النّضر قال: كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية، وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأحد القُرّاء»[1].

وقال القفطي في إنباه الرواة: «قال أهل العلم :إنه أوّل من وضع علم العربية؛ والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤليّ، وأظهر هذا العلم بالمدينة، وهو أوّل من أظهره وتكلّم فيه بالمدينة. وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش، وما أخذ أهل المدينة النحو إلا منه، ولا نقلوه إلا عنه»[2].

والواقع أنّ عبد الرحمن بن هرمز شأنه شأن نصر بن عاصم، أخذا النحو عن أبي الأسود الدّؤلي، وكان لهما دور في نَقْط المصحف. أما عدّهما أول من وضع النحو، فليس له دليل يسنده.

ومهما يكن من أمر، فقد أضاف أبو الأسود الدّؤلي وتلاميذه إلى العربية عملا جليلا هو اتخاذ نَقْط جديد للحروف المعجمة في المصاحف تمييزا لها من الحروف المهملة، فقد ذكر الرواة أن الحجاج في ولايته على العراق (74-95هـ) أمر نصر بن عاصم، أو يحيى بن يعمر بإعجام حروف المصحف؛ لتمييز الحروف بعضها من بعض.

وقد كان أبو الأسود وتلاميذه من القرّاء، وأُخذ عنهم النقطان جميعا: نَقْط الإعراب، ونَقْط الإعجام، وبذلك أحاطوا لفظ القرآن الكريم بسياج يمنع اللحن فيه؛ مما جعل بعض القدماء يظن أنهم وضعوا قواعد الإعراب أو شيئا منها، وهم إنما رسموا في دقة نَقْطَ الإعراب، لا قواعده، كما رسموا نقط الحروف المعجمة من مثل: الباء، والتاء والثاء، والنون[3].

---

[1] السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص16

[2] القفطي، إنباه الرواة، 172/2-173.

[3] نفسه، ص17.